سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ (٧٢)



تفسير سورة العصر

لفضيلة الشيخ

أ.د. عبد السلام بن محمد الشويعر

الشيخ لم يراجع التفريغ



تفسير سورة العصر

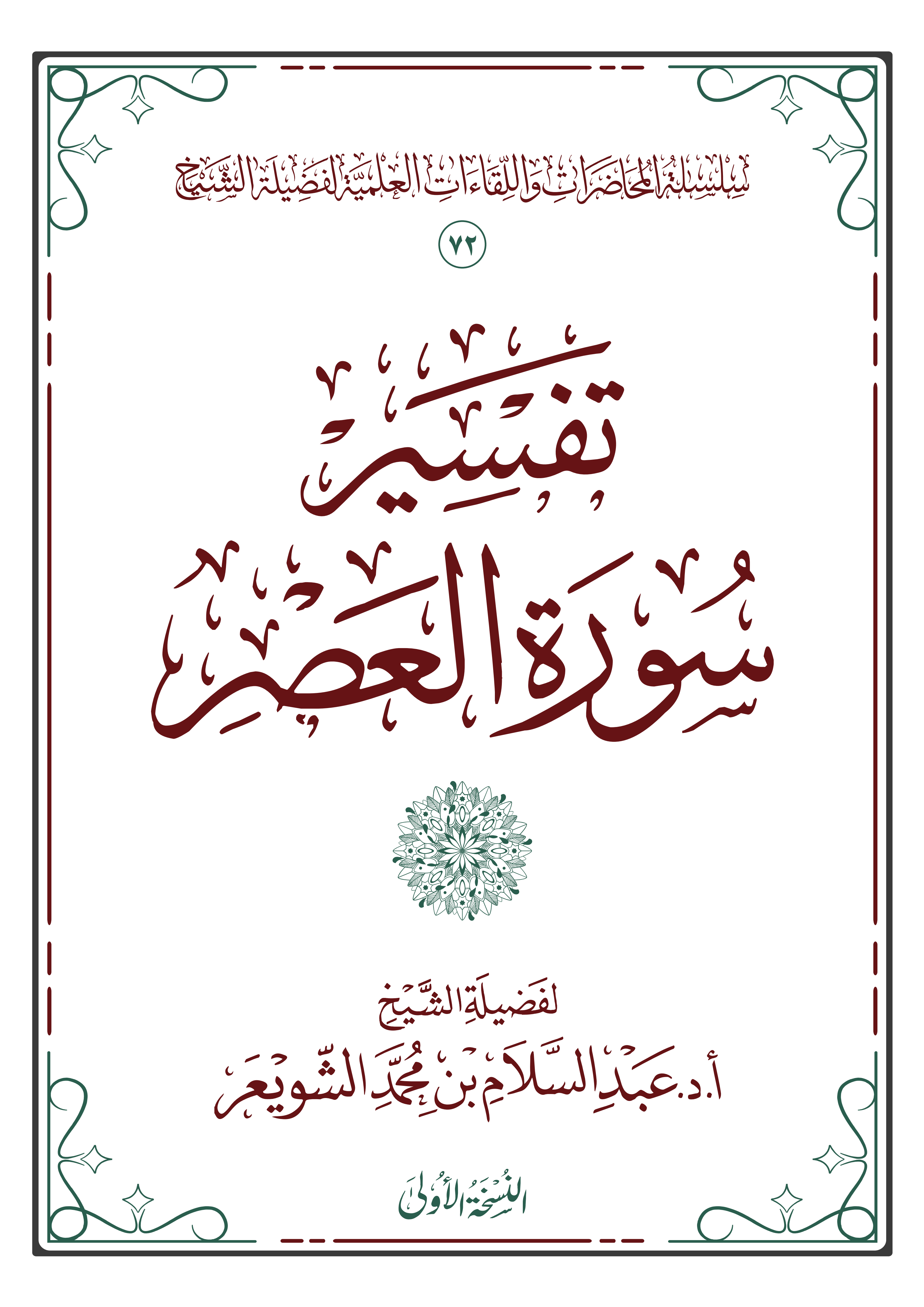
00966558883286

YouTube/alshuwayer9

alshuwayer9

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalshuwayer@gmail.com



سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ

٧٢

تفسير سورة العصر

لفضيلة الشيخ

أ.د. عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

... ولكن لما كان الناس يتفاوتون فيما بينهم في معرفة لسان العرب، ومعرفة ما دل عليه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، اختلفت فُهومُهم في هذه السورة العظيمة الجليلة، ولذا فإننا سنجمع في هذه الليلة كثيرًا من كلام العلم، ونوجز كلامهم ونجمعه في موضع واحدٍ طلبًا في تحصيل الفائدة الجليلة من هذه السورة العظيمة.

❁ أيها الإخوة، قبل أن أبدأ بذكر هذه السورة وما فيها من المعاني الجليلة، أَوَدُّ أن أَذكر مقدمتين جليلتين:

❑ **أُولى هاتين المقدمتين:** أنَّ هذه السورةَ فاضلةٌ جليلةٌ، وكل كلام الله عَزَّوَجَلَّ فاضل، ومن المتقرر عند علماء أهل السنة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى أنَّ القرآن كله فاضل، لكن بعض القرآن يفضل بعضا، فبعض القرآن يكون أفضل من بعض، وبعضه أعظم أجرًا من قراءة بعضه.

ولذا فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، وقال لأُبَيٍّ: «يا أبي، ألا أعلِّمك آية هي أفضل القرآن»، وفي الحديث الآخر قال: «الحمد لله رب العالمين أفضل سُوَّر القرآن»، فدلنا ذلك على أنَّ بعض آيِ القرآن يفضل بعضا، ولكن كله عظيمٌ جليلٌ، لأنه كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

❁ وتفضيل بعض القرآن على بعض، قالوا:

▪ أفضله **ما كان متعلقا بنعوت الجبار جَلَّ وَعَلَا؛** فكلما كانت الآية أو السورة تذكر صفات الجبار جَلَّ وَعَلَا ونعوته وأسماءه وصفاته فإنها تكون أفضل؛ ولذلك كانت «قل هو

الله أحد تعدل ثلث القرآن»، وآية الكرسي لما كانت تمجيدًا للجبار جَلَّ وَعَلَا كانت أفضل آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

- ثم يليه ما كان في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ **مبيِّنًا لأحكام المكلَّفين**، التي عليهم التعبد بها لله عَزَّوَجَلَّ، فكانت آيات الأحكام مَرتبةً ثانيةً بعد آيات أسماء ونعوت الجبار جَلَّ وَعَلَا.

- ثم الثالث في الأفضلية -وكله فاضل- **ما كان من باب القصص والأخبار، للسابقين واللاحقين، وغير ذلك مما حواه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.**

مرادي بهذه المقدمة أنَّ أبيِّن أنَّ هذه السورة لما كانت فاضلةً فإن فضلها لأنها تبيِّن ما فيه صلاح معاش الناس فيما بينهم، وأفضل منها ما كان متعلقا بنعوت الجبار جَلَّ وَعَلَا، كسورة الصمد، وآية الكرسي وغيرهما.

هذه المقدمة الأولى التي أردت بيانها.

❑ **والمقدمة الثانية**: أريد أن أبيِّن لك أنَّ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قد يكون للآية الواحدة منه معنيان أو ثلاثة، وكل هذه المعاني صحيحة مستقيمة، قد أُريدَ بها معنى صحيح؛ ولذلك يقول أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيما رواه عنه أبو داود السجستاني في كتاب الزهد، أنَّه قال: «لا يكون المرء فقيها كل الفقه حتى يَعلَم للقرآن أكثر من وجه»، فالفقيه هو الذي يعلم للقرآن أكثر من وجه.

وقد جاء عند الخطيب البغدادي وغيره من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا أنَّه قال: «إن القرآن ذَلولٌ ذو وجوه»، أي: يحمل وجوهًا كثيرة.

۞ **ولكن ليس كل ما في كتاب الله مما يُظَن ومما يُتوقَّع يكون صحيحا، بل لا بد فيه من قيدين مهمين**، نبه عليهما أهل العلم، كالشاطبي وغيره:

❐ **أول هذين القيدين: أن يكون ذلك موافقا للسان العرب؛** فلا يجوز أن يقال في كلام الله عَزَّوَجَلَّ بمعنًى لا يقبله لسان العرب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فقد تَلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القرآن على العرب، ففهموه بلسانهم، وعرفوه بسليقتهم، وعرفوا معانيه بما كلمهم الله وخاطبهم به من هذا اللسان العربي المبين.

❐ **والقيد الثاني المهم: ألا يضرب القرآن بعضه ببعض؛** فلا يأتي امرء بمعنًى يكون معارضًا لمعنى آخر في القرآن، فإن القرآن لا يجوز ضرب بعضه ببعض، ولذلك ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «هلاك أمتي في ثنتين»، وذكر من أحد هذين الأمرين «الكتاب»، يعني: القرآن، فلما سُئِل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف يكون هلاك الناس بالقرآن؟ قال: «يقرؤونه فيتأولونه على غير وجه».

ولذلك تجد في زماننا هذا أكثر مما كان في زمان من قبلنا، وفي الزمان القريب قبلنا أكثر مما كان في الزمان الذي قبله، وهكذا إلى أن نصل إلى القرون الفاضلة، تجد من غرائب التفاسير وعجائب التأويل ومن الأمور التي تقشعر لها جلود المؤمنين من أناس يتجرؤون على كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ويقولون فيه بظنهم وحَدْسهم، ويقولون فيه بالجهل لا بمجرد الظن، وقد روينا في الخبر أن: «من قال في كتاب الله بظنه فأصاب فقد أخطأ»، أي: فهو وإن وُفِّق للصواب فقد أخطأ، هذا الخبر معناه متجه عند كثير من أهل العلم، ولذلك لو تأملت في طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم في تحرزهم وتخوفهم من أن يأتوا بقول لم يسبقوا إليه في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ لرأيت عجبًا.

فهذا صدِّيق هذه الأمة، وصاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأكثر الناس ملازمة له، أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُسأَل عن آية في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فيقول: «أيُّ سماء تُظِلُّني، وأيُّ أرض تُقِلُّني، إنَّ قلت في كتاب الله ما لا أعلم»، لقد ضرب لنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أروع الأمثلة في التَّورُّع عن القول في تأويل كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وتفسيره بالظن والجهل، ولذا فإن المسلم يجب عليه أن يتقي الله عَزَّ وَجَلَّ في تفسير كلام الله، وأن ينظر فيه بلسان العرب، وبمراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي كشفه لنا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞ إذا عرفت ذلك بهاتين المقدمتين، فإن ربنا جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، **هذه البسملة -أيها الأفاضل، كما تعلمون- هي آية حيث كُتبت في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ**، فهي آية قبل الناس، وهي آية قبل الفلق، وهي آية قبل سورة الصمد، وهي آية قبل كل سورة من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ ولكن قبل أن ننتقل للمقسوم به يجب أن ننتبه ونراعي **أنَّ الله يقسم بما شاء، بينما الخلق لا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ**، أقول لك قال رسول الله -ولا أقول لك قال زيد ولا عمرو-، أقول لك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، هذا قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، العجب ممن يسمع قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بعد ذلك يخالف أمره، ويقسم بغير الله عَزَّ وَجَلَّ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك، إذا نظرت في طريقة السلف من الصحابة عرفت عِظَمَ وخطورة الحلف والقسم وغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «لَأَن أُقسم بالله كاذبًا -أي: حانثا، والكذب في اليمين كبيرة من الكبائر- أحبُّ إليَّ من أن أقسم بغيره صادقًا».

أيها الفاضل، إن الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ محرم، بل هو من المحرمات العظيمة، لذا نَعَت ووصَف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقسِم بغير الله والحالف بغير ذاته جَلَّ وَعَلَا وبغير صفاته بأنه قد كفر وأشرك.

۞ **وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾** [العصر: ١]، أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالعصر، والعصر له معان أربعة كلها صحيحة، والقرآن كما ذكرتُ لك حمَّال أوجه:

❑ **أول هذه المعاني؛ أن المراد بالعصر هو الزمان كله،** الذي يعيشه المرء من ميلاده إلى وفاته، وهو الزمان الذي يكون معاصرا له، ويكون قبله، ويكون بعده، ولذا قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا حينما قرأ هذه الآية ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾، قال: «العصر هو الدهر»، فالله عَزَّوَجَلَّ ينبهك إلى أن هذا الزمان الذي أنت تعيشه، والوقت الذي يجري من عمرك هو عظيم فانتبه له، هو عظيم لأن فيه وقائعَ عظيمةً، ففيه اعتبار بأحداث ومخلوقات وأشياء أرادها الله عَزَّوَجَلَّ، فتفكر في هذا الزمان، كم من امرئ كان فقيرًا ثم تغير حاله فأغناه الله، كم من امرئ كان وضيعا فتغير حاله فرفعه الله، والعكس بالعكس، كم من غني كان عَلِيًّا فخفضه الله، كم من صحيح كان قويا فضعُف بدنه، وهكذا.

فتفكر في الدهر وفي الزمان؛ ماذا فعل الدهر في الناس؟ بل ماذا فعل الدهر في الجمادات؟ فكم من جماد كان قويا شاخصًا، بنيانًا عاليًّا، فلم يبقَ من ذلك البنيان إلا أثره وبقي رسمه.

إذن، لما أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالعصر الذي هو الزمان والدهر، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: انتبه! إنَّ هذا عظيم، فتفكر بما يحدث في ذلك الزمن.

ومن عظم العصر الذي هو الزمان والدهر أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ نهى عن ذمِّه، ولذلك قال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يقول الله عَزَّوَجَلَّ: يسبني عبدي، يسب الدهر، وأنا الدهر»، يسب الدهر، أي: أفعال الدهر، الله عَزَّوَجَلَّ يقول: أنا الذي أفعل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ومشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يحدث في الدهر، من الفقر ومن العَوَز، ومن الضعف، ومن الخسارة، وغير ذلك من الأمور.

ولذا فإن المؤمن لا يسب زمانه، ولا يسب الدهر، فإن هذا دليل على ضعف إيمانه بقضاء الله وقدره، إنَّ المؤمن الذي يؤمن بقضاء الله وقدره لا ينسب الأفعال للزمان، وإنما لربها، رب الزمان جَلَّوَعَلَا، وهذا معنى تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ والإيمان بالقضاء والقدر.

إذن، هذا الأمر الأول في معاني العصر الذي أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به.

❑ **الأمر الثاني؛ قيل: إنَّ المراد بالعصر الذي أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به: هو الزمان الذي نعرفه، ويكون في آخر النهار؛** قالوا: لأن الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بأول النهار، بالضحى، وأقسم بأول النهار وفاصل الليل عن النهار، وهو الفجر، وأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالليل، وأقسم الله بالنهار، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك بآخر النهار، وهو العصر.

وإقسام الله عَزَّوَجَلَّ بالعصر، الذي هو الزمان الذي نعرفه يدلنا على معنى عظيم، إذ هذا الزمان وقت فاضل، بل إنَّ جمعًا من أهل العلم يقولون: إن أفضل أوقات اليوم في النهار -بل بعضهم يقول: النهار والليل-، أفضل الأوقات هو العصر.

والدليل على أنَّ العصر هو أفضل أوقات اليوم أنَّه لما جاء تعظيم اليمين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦]، جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أنَّ الصلاة التي يُحلَف بعدها هي صلاة العصر، لأنه كما تعلمون، أنَّ اليمين تُعظَّم بالزمان

وبالمكان، وتُعظَّم باللفظ؛ فأما تعظيمها بالزمان فأن تكون بعد صلاة العصر، وأمَّا تعظيمها بالمكان فتكون في المسجد عند المنبر، وأمَّا تعظيمها باللفظ فأن يقول: «والله العظيم، الذي لا إله غيره» أو نحو ذلك من الألفاظ العظيمة، فدلنا ذلك أنَّه لما أردنا أنَّ نعظِّم اليمين جُعلَت اليمين بعد صلاة العصر، ولذلك دل هذا الأمر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ على أنَّ أفضل أوقات اليوم كله هو العصر، فهو وقت فاضل عظيم شريف.

❁ وحينما علمت أنَّ هذا الوقت شريف وفاضل فأريدك أنْ تعلم مهمة، فإن أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تعالى قد قرروا قاعدةً مهمةً: **أنَّه لا تلازما بين فضل الزمان وبين مطلق العمل**، احفظ هذه القاعدة المهمة، التي أخطأ فيها كثير من الناس، لا تلازم بين الزمان وبين مطلق العمل، فإن أفضل أيام الأسبوع يوم الجمعة، ومع ذلك نهينا نهي كراهة عن إفراده بالصوم، وأفضل أيام السنة يوم النحر، وهو يوم العيد، وقد نهينا نهي تحريمٍ عن صومه، بل إنَّ ذلك غير صحيح، أي: صوم يوم العيد، ومثله يقال أيضا في قيام ليلتي العيد.

فالمقصود أنَّه لا تلازم بين فضل الزمان ومطلق العمل.

❁ إذا عرفت ذلك، فانظر في وقت العصر، العصر -كما تعلمون- هو أفضل أوقات النهار، وقيل: والليل كذلك، **ولا يجوز فيه الصلاة لأنه وقت نهي**، وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة بعد صلاة العصر، فمن حين يصلي المرء صلاة العصر فإنه قد دخل وقت العصر في حقه، فكل واحد من الناس يختلف وقت النهي في حقه عن الثاني؛ فمن صلى العصر في أول الوقت بدأ وقت النهي في حقه، ومن صلى صلاة العصر في آخر الوقت بدأ وقت النهي عن النوافل في حقه من حين صلاته للعصر، بل إنَّ مَن جمع الظهر والعصر جمع تقديم، فإنه يحرم عليه التنفل بأي نفل في الجملة حتى يؤذِّن أو يدخل وقت

صلاة المغرب، ولذلك فنحن في عرفة عندما نذهب للحج نجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم، فلا يجوز للحاج في يوم عرفة أن يصلي أي ركعة بعد ذلك، لأن وقت النهي قد بدأ من بعد صلاة العصر، وهذا معنى قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «أكثر الأحاديث على أنَّ النهي متعلق بصلاة العصر».

۞ إذن، أيها الفاضل، إذا علمت أنَّ صلاة العصر بعدها منهي عن صلاة النافلة فما هو العمل الفاضل الذي يستحب في وقت العصر؟

نقول: إنَّ أفضل ما يفعل في وقت العصر عبادتان مهمتان:

▪ **أولى هاتين العبادتين: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ،** ولذلك فإن من الأذكار اليومية هي الأذكار التي تقال في طرفي النهار، أول النهار وآخره، وآخره يكون العصر، فمن أفضل العبادات التي تفعل في العصر عبادة هو عبادة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

فعبادة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من العبادات الفاضلة، التي تختص بهذا الوقت، فاحرص على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، واعلم أنَّ العصر وإن كان الذكر فيه قليلا وهي أذكار المساء، إلَّا أنَّ أجرها عظيم لأجل أنَّ الناس يكونون منشغلين، فقد جاء في صحيح مسلم أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أفضل العبادةِ العبادةُ في الهرج»، أي: حينما يكون الناس منشغلين بالبيع والشراء، وبأمور الدنيا، فإذا انصرف الناس عنهم وانشغل بعبادة مشروعة، كذكر الله عَزَّوَجَلَّ في العصر، فإنه يكون قد فعل أفضل العبادات.

▪ **العبادة الثانية التي تستحب في العصر خصوصا: هي عبادة لزوم المساجد،** فيلزم المرء فيها المسجد لعبادةٍ، كتعلُّم القرآن، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ويلزم المسجد لتعلُّم العلم ودروس العلم، فإن هذا من العبادات الفاضلة التي تُفعل في هذا الوقت.

إذن، أيها الموفق، إذا عرفت أنَّ العصر قد أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به، الذي هو آخر النهار، فاعلم حين ذاك أنَّ لفضل هذا الزمان أفضل ما يفعل فيه أن تنشغل بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وبلزوم المسجد بعبادة، كتعلم العلم، وحلقة قرآن، ونحو ذلك من الأمور الفاضلة.

وقد جاء عن الحسن البصري وغيره من أهل العلم أنهم لما قرأوا هذه الآية، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾، قال: «المراد بالعصر: ما بين الزوال إلى غروب الشمس»، وهذا صحيح، فقد قرر الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى أنَّ وقتي صلاتي النهار وقت واحد، لذا يجوز جمعهما لأسباب الجمع المتعددة التي أوردها العلماء في باب جمع الصلاة لذوي الأعذار

❒ **المعنى الثالث؛ -وهو معنى صحيح كذلك- أن المراد بالعصر هنا: هو عصر كل شخص بحسبه؛** فكأن الله عز وجل أقسم بزمن عمر كل شخص...

۞ **﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾، هو إقسام بأربعة أمور:**

❒ **إقسام بالدهر كله، والأزمنة كلها.**

❒ **وإقسام بآخر النهار،** الذي هو أفضل أوقات اليوم.

❒ **وإقسام بعمر الآدمي وزمانه.**

❒ **وإقسام بعصر النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، مما يدل على شرف من أدرك ذلك العصر، وهم صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

۞ ثم بعد ذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: ١-٢]، هذه الآية، قال أهل العلم: فيها مؤكدات عظيمة، مما يدل على تأكيد جواب القسم، فقد

جاء الله عَزَّوَجَلَّ بـ «إن» المثقلة التي تدل على التأكيد، ثم جاء الله عَزَّوَجَلَّ باللام «لفي»، ثم أتى الله عَزَّوَجَلَّ بفي الظرفية التي تدل وتفيد على إحاطة الخسران بالآدمي من كل جانب.

هذه الآية فيها ثلاثة مؤكدات عظيمة، دل عليها لسان العرب، فينتبه العربي الذي يفقه لسان العربية لهذا المعنى العظيم الذي نبه الله عَزَّوَجَلَّ فيه.

۞ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، بعدما أقسم الله -والله صادق في خبره- أنَّ الإنسان في خسر، والمراد بالإنسان هنا: كل الناس، جميعًا، مهما اختلف لونهم، ومهما اختلفت لغتهم، ومهما اختلف جنسهم، ذكرًا كان أو أنثى، ومهما اختلف قدر إيمانهم، فإن الإنسان هنا يدخل فيه المؤمن وغير المؤمن، فإن بعض المؤمنين يكونون خاسرين، ويكونون داخلين في هذا الخسران الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ -كما سيأتي في كلام أهل العلم بعد قليل-، ولكن الخسران درجات كما أشار إليه أهل العلم.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، فكل الناس، فالإنسان هنا اسم جنس دخلت عليه «أل»، واسم الجنس إذا دخلت عليه «أل» فإنه يفيد العموم والاستغراق، خاصة إذا أمكن استبدال «أل» بـ «كل»، فكأنك قلت: «كل إنسان»، فحينئذ تفيد العموم، مما يؤكد على عمومها المعيار اللغوي والأصولي المشهور عند أهل العلم **أنَّ الاستثناء علامة العموم**، فكلُّ ما دخل عليه استثناءٌ فإنه يدل على عمومه، وقد أورد الله استثناءً بعد هذا العموم، فدل على أنَّ الناس كلهم في خسران.

۞ **وما المراد بالخسران؟**

قال أهل العلم: إنَّ المراد بالخسران هو هلاك المال، أو نقصه، فالخاسر هو الذي هلك، وهو الذي نقص؛ إما هلك ماله، أو هلكت نفسه، هلكت نفسه بالموت، هلكت نفسه بالعذاب والعقوبة، نقص بأن ورد عليه شيء من الموارد التي تنقص ربحه.

۞ فالإنسان إما أن يكون رابحًا، وإمَّا أن يكون خاسرًا، وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ كل الناس، بَرَّهم وفاجرَهم، مؤمنهم وغير مؤمنهم، كلهم خاسرون، إلا من اتصف بأربعة أوصاف ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقبل أن أذكر هذه الأوصاف الأربعة هنا نكتة لطيفة، فإن الذي عليه المحققون من أهل اللغة ومن أهل الأصول، وقيل إنه من مفردات مذهب أحمد، **أنَّ الاستثناء للأعيان لا يصح إلا أن يكون دون النصف**، فلا يصح أن تستثني الأكثر من الكل، فلا تقول أربعة إلا ثلاثة، بل ولا يصح في لسان العرب أن تقول أربعة إلا اثنين، بل لابد أن يكون المستثنى أقل من النصف، طبعا في غير الصفات.

۞ إذا عرفت ذلك، فإن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٢-٣]، يدلنا على أنَّ الذين اتصفوا بهذه الأوصاف الأربعة قلةٌ في الناس، وأنهم ليسوا كثرة، بل هم قليل، وكلما كَمُل الاتصاف بهم كلما قلوا أكثر من غيرهم، وفي هذا عزاء للمؤمن ليعلم أنَّ أكثر الناس ليسوا كُمَّلًا، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إنَّ من طبيعة البشر -**أيها الفضلاء**- أنهم جُبلوا على المحاكاة والتقليد للأكثر وللأغلب وللأعلى وللأغنى، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هؤلاء الكُمَّل من الناس الذين اتصفوا

بالصفات الأربع، أنهم قلائل في الناس، وكما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم كـ: «النُّزَّاعِ من القبائل»، يُعَدُّون عدًّا في البيوت، ويُعَدُّون عدًّا عند الناس، وفي البلدان، وفي هذا تنبيه المؤمن، وفيه أيضا تعزية له، ليعلم أنَّه على خير، إن اتصف بهذه الأمور الأربعة، وأنه سيكون من أكمل الناس ربحا وأبعدهم عن الخسارة.

❁ **أيها الفاضل**، إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد ذكر أربعة أوصاف، من اجتمعت فيه الأوصاف الأربعة فإنه لا يكون خاسرًا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، والثانية: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والثالثة: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، والرابعة: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

إذا تأملت هذه الآية مع قول الله عَزَّوَجَلَّ في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥-٦]، فهناك لم يستثن الله عَزَّوَجَلَّ إلا من اتصفه بصفتين فقط: الإيمان، والعمل الصالح، بينما هنا ضيَّق الاستثناء فجعل الصفات أربعة، وهذا يدلنا على أمر عظيم نبه إليه ابن القيم، وهو أنَّ أسفل السافلين ينجو المرء منه إذا أتى بالإيمان والعمل الصالح، ولكن قد يكون مؤمنا وعمل صالحًا لكنه قد خسر، إذا لم يأت بالوصفين الباقيين، أن يكون ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر.

ومعنى الخسران لمن فقد الوصفين الآخرين، أي: النقص، ومعنى الخسران لمن لم يؤمن ويعمل الصالحات، أي: الهلاك بالكلية، وهذا معنى لطيف، يعرفه من نظر في كتاب الله فجمع بين معانيه جميعا.

❁ **يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾**، هذا الوصف الأول، «الذين آمنوا» يدل على أنهم آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ آمنوا به ربا، وأنه لا مستحق للعبادة سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عرفوه وصدَّقوا به، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، ولذلك يدل على أنَّ كل عمل يعمله الآدمي

إذا لم يكن فيه إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ فليس بنافع له مطلقا، ولذلك لما قيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ ابن جدعان كان يُقرئ الضيف، وكان يفعل ويفعل من الخير والمعروف، أكان ينفعه ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال: «إنَّه لم يقل يوما من الدهر لا إله إلا الله».

۞ إنَّ الإيمان بالله **أيها الموفق** هو الركن الركين، وقطب رحى النجاة يوم الآخرة، ولذلك من آمن بالله ووحده فقد أوتي خيرا عظيما، من يرد الله به خيرا يشرح صدره للإسلام.

إنَّ من نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة على العبد أن يهديه للإسلام بينما أظل فئاما كثيرا، ليس لك فضل على الله، وليس لك ذكاء، وليست لك نباهة، بل الله عَزَّوَجَلَّ هو المتفضل عليك أن هداك للإسلام، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، الله هو المتفضل، الله هو صاحب المنة، الله صاحب هداية التوفيق جَلَّ وَعَلَا، فالله عَزَّوَجَلَّ هو صاحب الفضل عليك، فاحمد الله عَزَّوَجَلَّ على الإسلام، الحمد لله على نعمة الإسلام، نعمة الإسلام نعمة عظيمة، نعمة الإيمان نعمة جليلة.

۞ ﴿**إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾ [العصر: ٣]، إذا نظرت في كتاب الله، قَلَّ مَا يأتي صفة للمؤمن إلا وهي مقرونة بالعمل الصالح، وهذا يدلنا على أنَّ العمل الصالح شرط لصحة الإيمان، فلا إيمان إلا بعمل.

العمل قد يكون باللسان بالتلفظ، وقد يكون العمل بالأركان بالأعمال، كالصلاة والصيام والحج وغيره، وقد يكون العمل بالترك، الترك إذا كان بِنِيَّة فهو المسمى عند الأصوليين بالكفِّ فيكون عبادة، كالكف عن الطعام فيكون صومًا، والترك للزنا، من نوى

تركه وقد كان مستطيعا له أُجر عليه، وأمَّا مطلق الترك فإنه كفٌّ يؤجر عليه على الجنس لا على سبيل الأفراد. إذن، المقصود أنَّ الترك عبادة ويدخل في العمل إذا اجتمع معه نية، وهذا أمر مهم وقاعدة أصولية مشهورة، فصلها العلماء كالموفق في الروضة، وغيره كثير من أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى.

۞ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٣]، قول الله عَزَّوَجَلَّ: «تواصوا»، التواصي: هو أن يأمر المسلم أخاه وأن يحثه على الحق وعلى الصبر، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هذه الجملة بقوله: «وتواصوا»، ولم يقل: «ويُوصُوا»، مما يدل أنَّ المسلم يوصي غيره، ويقبل من غيره الوصية، ولذلك قال أهل العلم: لا يكون المرء عالما حتى يأخذ ممن هو أعلى منه، وممن هو مثله، وممن يكون دونه، ولذلك فإن المسلم لا يستنكف ولا يستكبر حينما يسمع نصيحة ممن هو أصغر منه سنا، أو أقل منه علما، أو أقل منه مكانةً وشرفًا، بل إنَّ الإمام إذا سمع من أطراف الناس كلمة وجب عليه الرجوع إليها كما في سجود السهو، وتعلمون حديث أبي هريرة حينما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصَدَق ذو اليدين؟».

فالمسلم لا يستنكف حينما يؤمر بحق أن يرجع للحق، فالمؤمن رجَّاع للحق، ولذا فإن نفس المؤمن نفس لوامة، دائما تلومه على تقصيره، وينبهه على تقصيره أخوه المسلم، حينما ينبهه على نقصه، وعلى فوات، وعلى أمر قد نسيه من السنن ومن المعلومات، ولذا كلما كان المرء رجاعًا للحق، وكلما كان المرء مذكرا بإخوانه كان متصفا بكمال الربح وعدم الخسران.

۞ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، إذن، تأمل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: «تواصوا»، فكل واحد من المسلمين يوصي أخاه، ويعلِّم أخاه، ويذكِّر أخاه، لا يوجد رجل هو أعلم الناس، إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم الناس، فلا أحد أعلم بالله عَزَّوَجَلَّ من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ، وأفضل أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل من بعد رسول الله هم دونه في العلم، وكل واحد من الناس قد فاته من العلم أضعاف أضعاف ما يعلم، كما قال الخضر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما ركب سفينةً فجاء عصفور فنقر في اليم قطرةً شربها، قال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا موسى ما نقص علمي ولا علمك من علم الله عَزَّوَجَلَّ إلا كما أنقص هذا العصفور من اليم»، فالعلم عظيم، ولا يحيط بالعلم إلا نبي، كما قال الشافعي وغيره من أهل العلم، لأنه يكون بوحي من الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **ولذلك أنبه هنا أنَّ المؤمن يجب عليه دائما أن يقبل من إخوانه،** والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أنَّ الحيتان في بطن بحر، والنمل في جحره يستغفر لطالب العلم، الذي يقصد مسجدًا، ويقصد موضعًا ليتعلم ولو شيئًا يسيرًا، ولو معنى آية، أو ضبط آية، وإحسان تلاوتها، ولذلك تواصوا بالحق، لا تنتظر أنَّ الناس يأتونك ليوصوك، بل اذهب إليهم في مساجدهم، واذهب إلى أهل العلم واسألهم، واجلس في حلقهم، فإن هذا من علامات الربح، فمن فقده أو حرمه فإنه بنص كلام الله عَزَّوَجَلَّ يكون خاسرا، خسران نقص أو خسران هلاك بالكلية.

۞ **وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾**، هذا الحق الذي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتواصي به جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أكثر من معنى وهو متقارب:

❑ **فقيل: إنَّ المراد بالحق هو القرآن**، فيوصي المسلم أخاه بالقرآن دائما، وهذا حقيقة، فدائما يجب على المسلم أن يوصي أخاه بالقرآن، فيقول هل قرأت وردك اليوم أم لا؟ ثم يقول هل أحسنت تلاوة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؟ فاحرص على ضبط تلاوته، كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أيها المسلمون أعربوا القرآن»، فإن إحسان التلاوة هو معنى إعراب القرآن، يأتي المسلم لأخيه فيقول: هلا استمعت مني آية من كتاب الله أو استمعت منك آية، كما جاء أن أبا الدرداء كان يأتي معاذا رضي الله عنهما يقول: «يا معاذ ائتِ بنا نؤمن ساعة»، فيجلسان فيقرأ أحدهما على الآخر آية ويقرأ الآخر آية، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يجلس مع أصحابه فيقرأ كل امرئ منهم آية.

إذن، من التواصي بالحق التواصي بالقرآن باستماعه، التواصي بالقرآن بضبط قراءته، التواصي بالقرآن بالحث على حِزبه، من منا أوصى زوجه، أوصى ولده، أوصى أخاه بحِزب القرآن؟

كانت عائشة رضي الله عنها تجعل لها حزبا من القرآن في كل يوم، حتى إذا جاء وقت نومها ولم تقرأ حزبها من القرآن أخَّرت نومها، أي: سهرت حتى تقرأ حزبها من القرآن.

وقد قال أهل العلم إنه يكره وجهًا واحدًا -أي عند فقهائنا- أن يمر على المسلم المحسن للقراءة نظرًا، أو المحسن للقراءة حفظا، أن يمر عليه أربعون يوما ولا يختم فيها القرآن، فأقل القليل في ختم القرآن أن تجعل تحزيبا للقرآن تختم فيه القرآن كل أربعين ليلة، وأما أقله كما تعلمون في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن تختم القرآن في ثلاث، فقد نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أغلب الأحوال أن يُختم القرآن في أقلَّ من ثلاث.

إذن، من الأمور المهمة التواصي بالحق، الذي هو القرآن، التواصي بالقرآن، أعظم وصية القرآن، حبَّذَا لو جلس المرء مع أبنائه فقرأ آية، أو مع إخوانه وزملائه ولو في العمل، فقرأ آية، فأسمعهم إيَّاها وعلمهم تلاوتها وفقَّههم في معانيها من كتاب موثوق، مِمَّا نقله أهل العلم عن سلَفِ هذه الأمَّة، من الذين أدركوا عصر النُّبوَّة، الذِين أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بزمانِهم حينما قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١﴾.

هذا المعنى الأول الذي ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم.

□ المعنى الثاني: ما جاء عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: «إنَّ التواصي بالحقِّ هو التواصي بالتوحيد»، نعم، التواصي بالحق هو التواصي بالتوحيد، إنَّ الوصيَّة بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالعبادة أمرٌ قد أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ به في كتَابِه، بل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه السُّورة العظِيمة التي قال عنها الشَّافعِي: «لَو لم ينزل اللهُ عَزَّوَجَلَّ على النَّاس إلَّا هذه السُّورة لَكَفَتهم في صَلاحِ دينِهم ومَعاشِهم»، هذا يدلنا على أنَّ من الأمورِ التِي علامة خير المرء وربحانِه أن يُوصِي النَّاس بالتوحيد، يوصي المرء إخوانه بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يحذَرُوا مِمَّا يَنقُض التَّوحيد بكلِّيَّتهِ، أَو ينقِصُه.

أَلَم يمَر مَعنَا قَبل قليل أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حذَّر مِن الشِّرك الأصغَر بالحَلِف بغَير اللهِ، إنَّ الذِي يوصي أخَاه بالحَلِفِ باللهِ، وينَهاهُ عَن الحَلِفِ بِغيرِ الله عَزَّوَجَلَّ فقد أوصَاه بالتَّوحِيد، الذِي أثنَى الله عَزَّوَجَلَّ على المُتوَاصِين بِهِ حينَمَا قَال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾.

حينمَا يرى المرء شخصًا يستَغيثُ أَو يَستَعِين أو يدعو غَير اللهِ عَزَّوَجَلَّ يقول له: يا أَخِي اسمَع قَول النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الدُّعَاء هو العِبَادة»، لا يُستغاث ولا يستعَان ولا يدعى غيرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢]،

«صلاتي»، أي: دُعَائِي، فلا يدعى إلَّا الله، ولَا يُرجَى إلَّا الله، ولَا يُطلبُ سؤال مِن غيرِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إلَّا من حيٍّ قادرٍ فِيما يستَطِيعهُ، فهذَا من بَاب الطَّلب مِن المُمَاثِلِ لمثيله.

إذن، التَّواصِي بالتَّوحيد والحدِيث عنهُ مُهمٌّ، ومِن الأمور المتعلقة بالتوحيد حديث سأذكرهُ لكم على سبيل الإيجاز، فإنَّ من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ التذكير بِمَا صحَّ -وأركز على كلمة بِمَا صحَّ- عن رَسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أشراط السَّاعة، فإنَّ أشراط الساعة من دين الله عَزَّوَجَلَّ، إذ من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر، واليوم الآخر له أشراط وله أهوال، وأما ركنه فهو البعث يوم القيامة.

وقد بيَّن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ من علَامات آخر الزَّمان أن لَا يتَذاكَر النَّاس أشراط السَّاعة، يقول النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رَواه عبَد الله بن الإمام أحمد في زوائده عن المُسند من حديثِ الصَّعب بن جثَّامةَ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أنَّ النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «يَخرجُ الدَّجَّالُ حِينمَا يَترُكُ النَّاس ذِكرَه مِن عَلى المَنابر».

إذن، حينَمَا يغفل النَّاس عن أمرٍ يقعُون في ضدِّه، حِينما غفلوا عن ذكر الدَّجال ظَهر الدّجال فِيهم، حينَما غفل النَّاس عَن التوحيد ظَهرت فِيهم مظَاهر ضده، حينَما غَفل الأئمة والمُوَّعِّظون والمذكِّرون عن أحكام الفقه وقع النَّاس في الجهل، وهكذا، فالتَّواصي بالحقِّ أمرٌ عَظيم.

❑ **المعنى الثالث: أن المراد بالتواصي بالحق، أن المراد بالحق الدين كلُّه**، فتعليم الناس العلم، الفقه في صلاتهم وطهارتهم وحجِّهم وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم مِن أعظم الأمور، كم من امرئ مرَّت عليه السنين الطِّوال لا يعلم أن الزكاة واجبة عليه، ولَربما علم وجوب الزكاة، لكنه لم يعلم كيفية إخراجها، ومقدار ما يُخرج منها، وكم من امرئ يبيع

ويشتري، ويتعامل في السوق ولا يعلم الحلال من الحرام، ولذلك قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، قال أهل العلم: هو فريضة بحسب كلِّ امرئ بعينِه، فكلُّ من نحتاج شيئا من الأمور لزمه تَعلُّم حُكمِه، كَما قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «قد هممتُ أنْ آمر فأمنع الصُّرَّاف مِن دخول السوق حتى يتعلموا أحكام الربا» فمن يتعامل بالصرف، لا يجوز له أن يتعامل به حتى يعرف الحلال من الحرام فيه، إذن هذا من التواصي بالحق.

❑ من التواصي بالحق ما جاء عن بعض الصحابة والسلف من أن المراد بالحق هو الله عَزَّوَجَلَّ، فيوصي المرء أخاه بالله عَزَّوَجَلَّ، وكيف يكون التواصي بالله؟

هو كلُّ ما سبق، فمن التواصي بالحق، أن تتواصى بكلام الحق سبحانه، وأن تتواصى بأمر الحق سبحانه، وهو تعلم الأحكام الشرعية، وأن تتواصى بالحقِّ، أي؛ في جميع شرائع الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن، هذه الصِّفة الثالثة، وهي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ ﴾.

۞ وأما الصفة الرابعة، التي ختم الله عَزَّوَجَلَّ بها هذه السورة العظيمة، حينما قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾.

هذه الدنيا **أيها الأفاضل** فُطرت على الكَدر، والآدميُّ فُطر على محبَّة الرَّاحة والدَّعة، ولا يمكن أن يَنال المَرء شيئًا مِن الدُّنيا إلَّا بالصَّبر، فإنَّ السَّماء لَا تُمطرُ ذَهبًا ولا فِضَّة، فلَا بدَّ أن يصبِر في تِجَارته، ولَا بُدَّ أن يصبرِ في تَعلُّمِه، ولا بدَّ أن يتَغرَّب لِتحصيلِ رزقِه، وهكذَا، فَلا بُدَّ مِن الصَّبر، وَمِن صفات المِؤمنين الكُمَّل الرَّابحِين الذين ليسوا من الخَاسرين أنهم يتواصون بالصَّبر.

قال أهل العِلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تَعالى: «والصَّبر إمَّا صبرٌ عَلى أقدار اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وإمَّا صبرٌ بِمشروع الله عَزَّوَجَلَّ وأمرِه»:

❑ **فأمَّا الصَّبر عن أقدار الله عَزَّوَجَلَّ**، فإنَّ المسلم بطبعِه إذا رأى أخَاه قد ابتُليَ بشيء مِن بلَاء الدُّنيَا فإنَّه يذَكرِّهُ بالصَّبر، فيذَكِّره بما أعدَّ الله للصَّابرين من الأجر، ويذكِّره بأعظم ما يقوِّي الصبر، وهو الإيمان بالقضاء والقدر، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ قَد قدَّر هذا البلَاء وهذا الأمرَ الذِي ضَجِرَ مِنه وجَزع مِنه ذاك الآدمِيّ، لَيس قَبل خَلقِه -أيَّ: خلقَ الآدميِّ- بل إنَّ الله قد قدَّر ذلك قَبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة، **ولذلك فإن مراتب القدر أربع:**

- **العِلم**: حيث علم الله عَزَّوَجَلَّ ذلك قبل كل شيء.
- ثم **الكتابة**، حيث قد كتب الله عَزَّوَجَلَّ المقادير قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.
- و**المشيئة**: حيث شاءه الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يجري شيء في مُلكِ الله عَزَّوَجَلَّ بغير مَشيئَته.
- [والرابعة **الخلق**: فكل كائن فهو مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ، لا خالق غيره، ولا رب سواه]

فاللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد قدَّره، فجزَعُكَ أيها الآدَميّ لَا يغيِّر من المقدور شيئا، و«لو» إنَّما تفتح عَمل الشيطَان، ولا تردُّ في المقدور شيئًا، وإنَّمَا ذلك بتقدير الله عَزَّوَجَلَّ وقضائه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

هذا الأمر الأول، يذكر المسلم به الآخر، والأمر الثاني، يذكر المسلم أخاه بأنَّ هذا البلاء الذِي أصابَك، في المقَابل دُفِعَ عَنك ما هُو أعظم، ولِذَا قال بعض السَّلف وهو عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «القَدَرُ سِرُّ اللهّ» ، وقَال بعَض السَّلف فيما نقَله عبد الله بن وَهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

«لو كُشفَ القَدرُ لحُمِدَ المَقدُور»، الله عَزَّوَجَلَّ دفع عَنكَ من الضَّرر أعظم بِكثيرٍ مِمَّا أصَابك، لكن لا بدَّ من الإصابة، لا بدَّ أن يُصاب كلُّ امرئ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، كُل مرء لا بدَّ أن يصاب بشيء، وإن لم تُصب فإنَّه يأتيك المقدور مرَّة واحدة، وقد ذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ مثل المؤمن كمثل خامَّة الزرع، تأتيها الرِّيح -أي: الابتلاءات- يمنة ويسرى فتميل، ثم تقوم بعد ذلك، بينمَا المنافق مثله كمثل الأَرْزَة، لا يضرُّه ريح، لا يأتيه ابتلاء، وإنَّما مثله كمثل الأَرْزَة -أي: شجرة الأَرْز القويَّة- حتى يأتيه بلاء واحد فيسقطه فلا يستطيع أن يقوم بعد ذلك، فالمؤمن دائما يأتيه البلاء، وفي وقتنا وزماننا وجلسائنا، كم من امرئ تقول له: اُنظر لفلان قد ابتلي بمثل بلائك، فانظر لحاله لم يجزع ولم يسخط، فحين ذلك يقتدي به، ولذلك أيها المؤمن إن توصيتك للناس بالصبر، يكون بأمرين، بلسانك وبفعلك معه، فاحرص على إظهار التجلُّد، وبيان الرضى بقضاء الله وقدره، فإن هذا أجر لك في نفس الفعل، وأجر لك في اقتداء الناس بك، هذا النوع الأول من أنواع الصبر، وهو الصبر على مقدور الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما قدَّره على الآدميِّ.

❐ **الأمر الثاني: الصبر على الطَّاعة،** وهذا أمر مهم لطلبة العلم خاصة، أيها الأفاضل، إنَّ العبادة فيها مشقَّة على النُّفوس، كل العبادات بلا استثناء، كل العبادات لها مشقَّة، أَلَم يقل السَّلف، ومنهم عبد الله بن المبارك رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى: «جاهدتُ نفسِي وجالدتها عشرين سنة في قيام الله، فارتاحت بعد ذلك عشرين سنة»، لا يكاد امرؤ يُقدِم على العبادة في أول الأمر بإقبال، بل لا بدَّ أن تكون نفسُه ثقيلة، ولا بدَّ أن تكون تلك العبادة شاقَّة عليه، فيأتي المسلم لأخيه المسلم فيوصيه بالصَّبر، اِصبِر، تحَمَّل، اعلَم أنَّ صبرك الآن عاقبَته أجرٌ، بل إنَّ عاقبَته في الدُّنيا أنَّ هذه العِبادة تصبح لذَّة لك.

۞ وأذكُر لك بعض دَلائل الدنيا من العبادات، كان بعض السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول: «إنَّ في الدنيا جنةً، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»، قيل: وما هي؟ قال: «هي قيام الليل»، لم يحس المؤمن بهذه اللذة والأنس بالله في قيام الليل، في الدعاء والمناجاة، إلا بعدما جاهد وصبر واصطبر، فتعودت نفسه واعتادت قيام الليل، بل الصلاة كلها لذة، جاء عن بعض السلف، وهو عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صاحب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان إذَا دخل في صلاته لم يحس شيئا، حتى أنه مرة دخل في صلاته فسال الدم من عرقوبه بسبب زنبور -يعني: شيء من الحشرات كان قد قرصه مرات-، فلم يحس به، فلما انصرف من صلاته قال: «لم أحس به في صلاتي، لأني كنت أقرأ كلام الله»، هذه لم تأت وليدة يوم وليلة، وإنما أتت بعد مجاهدة، وبعد اصطبار، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣]، فالتواصي بالصبر مهم جدًّا.

۞ إذَن، هذا ما يتعلق بالتواصي بالصبر، وأختم حديثي لقرب الأذان بكلمتين قصيرتين:

❑ من الأمور المهمة في الاصطبار، الاصطبار على العلم الشرعي، فإن العلم الشرعي أمره عظيم، والعلم لا ينال براحة البدن، ولذلك قال الزهري رحمه تعالى: «العلم من أخذه جملةً، ذهب منه جملةً»، فلابد من الاصطبار في تحصيله وفي نَيلِه.

❑ أختم ذلك بتفسير ذكره إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى لهذه السورة، فإن إبراهيم النخعي لما قرأ هذه السورة «والعصر» ذكر أنَّ المراد بالعصر هنا المعنى الرابع، وهو عمر الإنسان نفسِه، فقال: «إنَّ المراد بالعصر عمر الانسان»، فكأن الله عَزَّوَجَلَّ حينما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، أي: في نقصان، أي: كل امرئ يخسر في عمره وينقص، ويذهب

ذكره، ويقل ذكره، ويقل عِزُّه وجاهه، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾، إنَّ الذي اجتمع الأمور الأربعة هو الرابح في الدنيا، فيكون ذكره أرفع الذكر، والله ما ارتفع ذكر امرئ بشيء أعظم من أن يرتفع عند قومه، وعند جماعته، وعند الناس بأنه من أهل العلم والصبر والعمل.

فمن اجتمعت فيه هذه الأوصاف الأربعة فهو الذي ليس بخاسر، وأما في الآخرة فإن أكمل الناس ربحا وأتمهم درجة وأعلاهم منزلة من جمع هذه الأوصاف الأربعة.

۞ **أيها الاخوة**، هذا غيض من فيض من كلام الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، لأن القرآن لا تنقضي عجائبه، كما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يخلق على كثرة الرب، وأقول -حالفا غير حانث-: أننا لو بقينا ساعات طوال في تأمل هذه السورة، اليسيرة في ألفاظها، العظيمة في معانيها، التي لا تتجاوز سطرا واحدا، يحفظها كل صغير منا وكبير، لما كنت حانثا في ذلك، ولكن يكتفى من القلادة بما أحاط بالعنق، ويكتفى من البحر بالبُلالَة التي يتحصل بها المعنى.

أسأل الله العظيم، ربَّ العرش الكريم، أنَّ يرزقنا جميعا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يتولانا بهداه، وأن يغفر لنا ولوالدينا والمسلمين والمسلمات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ألقيت ليلة الأحد السادس عشر من شهر المحرم

سنة أربع وأربعين وأربع مئة وألف

في جامع مقبل بن عيضة بالعقيق (الباحة).